الحديث الثاني

قصة تخلف كعب وصاحبيه

ومن الأمثلة الرَّائعة الَّتي تدلُّ على علوِّ أسلوب بعض الصَّحابة ، وفصاحته ، وإحكامه قصَّة تخلُّف كعبٍ عن غزوة تبوك ، وكعبٌ شاعرٌ متمكِّنٌ مُفْلِقٌ ، وناثرٌ بليغٌ ، وقاصٌّ موفَّقٌ. نورد هذه القصَّة كما رواها البخاريُّ ، ومسلمٌ.

قال كعبٌ: «لم أتخلَّف عن رسول الله ﷺ في غزوةٍ غزاها قطُّ إلا في غزوة تبوك ، غير أنِّي قد تخلَّفت في غزوة بدرٍ ، ولم يُعاتَبْ أحدٌ تخلَّف عنه ، إنَّما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يُريدون عِيرَ قريشٍ ، حتَّى جمع الله تعالى بينهم وبين عدوِّهم على غير ميعادٍ. ولقد شهدتُ مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، وما أحبُّ أنَّ لي بها مشهدَ بدرٍ ، وإن كانت بدرٌ أَذْكَرَ في النَّاس منها. وكان مِنْ خبري حين تخلّفتُ عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك: أنِّي لم أكن قطُّ أقوىٰ ، ولا أيسر منِّي حين تخلَّفت عنه في تلك الغزوة. والله! ما جمعتُ قبلها راحلتين قطُّ حتَّى جمعتهما في تلك الغزوة ، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورَّى بغيرها ، حتَّى كانت تلك الغزوة ، فغزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديدٍ ، واستقبل سفراً بعيداً ، ومفازاً ، واستقبل عدداً كثيراً ، فجلَّى للمسلمين أمرهم ؛ ليتأهَّبوا أهبة غزوهم ، فأخبرهم بوجههم الَّذي يريد. . .[1] وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثِّمار ، والظِّلال ، فأنا إليها أَصْعَرُ ، فتجهَّز رسولُ الله ﷺ والمسلمون معه ، وطفقْتُ

---

(١) تشير النِّقاط إلى جُمَلٍ حَذَفْتُها.

أغدو ؛ لكي أتجهَّزَ معه ، فأرجع ، ولم أقض شيئاً ، وأقول في نفسي : أنا قادر على ذلك ؛ إذا أردتُ ، فلم يزل يتمادى بي حتى استمرَّ بالناس الجِدُّ ، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه ، ولم أقض من جَهازي شيئاً ، ثمَّ غدوتُ ، فرَجَعْتُ ؛ ولم أقض شيئاً ، فلم يزل يتمادىٰ بي حتَّى أسرعوا ، وتفارط الغزوُ [أي : فات وسبق] ، فهممت أن أرتحلَ ، فأدركَهم ، فياليتني فعلتُ! ثمَّ لم يقدَّر لي ذلك ، فطفِقتُ إذا خرجت في النَّاس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزُنُني أنّي لا أرىٰ لي أسوةً إلا رجلاً مغموصاً عليه في النِّفاق ، أو رجلاً ممَّن عذر الله تعالى من الضُّعفاء ، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتَّى بلغ تبوك ، فقال وهو جالسٌ في القوم بتبوك : ما فعل كعب بن مالك؟ فقال رجلٌ من بني سَلِمةَ : يا رسول الله! حَبَسَهُ بُرْداه ، والنَّظر في عِطفيه . فقال له معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ : بئس ما قلت! والله يا رسول الله! ما علمنا عليه إلا خيراً . . .[1] قال كعب : فلمَّا بلغني : أنَّ رسول الله ﷺ قد توجَّه قافلاً من تبوك ؛ حضرني بثِّي ، فطفِقت أتذكَّر الكذب ، وأقول : بِمَ أخرج من سخطه غداً؟ وأستعين على ذلك بكلِّ ذي رأي من أهلي . فلمَّا قيل : إنَّ رسول الله ﷺ قد أظلَّ قادماً ؛ زاح عنِّي الباطل ، حتَّى عرفت : أنِّي لم أنج منه بشيءٍ أبداً ، فأجمعت صدقه . وأصبح رسول الله ﷺ قادماً ، وكان إذا قدم من سفرٍ ؛ بدأ بالمسجد ، فركع فيه ركعتين ، ثمّ جلس للنَّاس ، فلمَّا فعل ذلك ؛ جاءه المخلَّفون يعتذرون إليه ، ويحلفون له . وكانوا بضعاً وثمانين رجلاً ، فقبل منهم علانيتهم ، وبايعهم ، واستغفر لهم ، وَوَكَل سرائرهم إلى الله تعالى ، حتَّى جئتُ . فلمَّا سلَّمتُ تبسَّم تبسُّم المُغْضَب ، ثمَّ قال : تعال ، فجئت أمشي ؛ حتَّى جلستُ بين يديه .

فقال لي : ما خلَّفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟

قلت : يا رسول الله! إنِّي والله! لو جلستُ عند غيرك من أهل الدُّنيا ؛ لرأيت أنِّي سأخرج من سخطه بعذرٍ ، لقد أُعطيت جدلاً ، ولكنَّني والله! لقد علمت لئن

---

(١) تشير النِّقاط إلى جملٍ حذفتُها .

حدَّثتك اليوم حديث كذبٍ ترضىٰ به عنِّي ليوشكنَّ الله أنْ يسخطك عليَّ ، وإنْ حدَّثتك حديث صدقٍ تجد عليَّ فيه إنِّي لأرجو فيه عقبىٰ الله عزَّ وجلَّ . والله! ما كان لي من عذرٍ، والله! ما كنتُ قطُّ أقوىٰ ، ولا أيسر منِّي حين تخلَّفت عنك .

فقال رسول الله ﷺ: أمَّا هذا فقد صدق . فقم حتَّى يقضي الله فيك .

وسار رجالٌ من بني سَلمَةَ فاتَّبعوني فقالوا لي: والله! ما علمناك أذنبت ذنباً قبل هذا ، لقد عجزت في ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المخلَّفون فقد كان كافيكَ ذَنْبَكَ استغفارُ رسولِ الله ﷺ لك .

قال: فوالله! ما زالوا يؤنِّبونني حتَّى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذِّبَ نفسي . ثمَّ قلت لهم: هل لقي هذا معي من أحدٍ؟

قالوا: نعم . لَقِيَهُ معك رجلان، قالا مثل ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك .

قلت: مَنْ هما؟

قالوا: مُرارةُ بن الرَّبيع العَمْريُّ ، وهلال بن أميَّة الواقفيُّ .

قال: فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما أسوةٌ . قال: فمضيت حين ذكروهما لي[1] .

أتوقف قليلاً هاهنا لأذكر بعض الملاحظات حول هذا النَّص البليغ المُمتع:

إنَّنا لنجد في هذا الحديث عرضاً لجانبٍ من حياة كعب الجهاديَّة ، والذَّاتيَّة ، فهو لم يترك غزوةً من غزوات النَّبيِّ إلا غزوة بدر ، وتلك الغزوة الَّتي لها ذكرٌ كبير عند النَّاس كانت في الأصل خروجاً للاستيلاء على عير قريشٍ ، ولكنَّ الله جعلها لقاءً بين المؤمنين ، والمشركين .

وهو قد أوتي جدلاً ، وقدرةً على الإقناع ، وهو شديد الخوف من الله ، وقد التزم الصِّدق .

---

(١) رواه البخاري (٤٤١٨) ومسلم (٢٧٦٩) .

وفي هذا الحديث اعترافٌ من كعب: أنَّه كان عند دعوة الرَّسول للنَّاس إلى الخروج إلى تبوك موسراً قويَّاً ، ولكن شَدَّهُ إلى البقاء كَسَلٌ ، وموسمٌ زاخرٌ بالثِّمار ، والفواكه ، وفصَّل في عرض تباطئه في الاستعداد حتَّى فات الغزو ، ومضىٰ الجيشُ ، وكان ذلك بأسلوبٍ جميلٍ ساحرٍ كشف فيه حديث نفسه له ، وحلَّل موقفه تحليلاً ذاتيَّاً رائعاً. لقد ذكر: أنَّ ممَّا أحزنه في مقامه في المدينة: أنَّه لم يجد له أسوةً ، وأنَّه ما كان يرىٰ في تجواله إلا منافقاً ، أو مستضعفاً عذره الله.

ومن المواقف الَّتي ذكرها معتزَّاً بها حضوره ليلة العقبة الَّتي لا يرىٰ يوماً يعدِلها.

ونجد في الحديث تصويراً دقيقاً لموقفه عندما عاد الرَّسول من غزوته... فقد بلغه: أنَّ رسول الله سأل عنه هناك ، وبلغه ذمُّ مَنْ ذمَّه ، ودفاعُ من دافع عنه ، لقد كان خائفاً من مقابلة الرَّسول ماذا يقول له ، لقد فكَّر في الكذب ، واستشار ذوي الرَّأي من أهله ، وحَسَم الموقف وقرَّر أن يؤثر الصِّدق... ولم يفكِّر في تقليد المُخَلَّفِينَ الَّذين كانوا يعتذرون بأعذارٍ كاذبة ، ويحلفون للنَّبيِّ ﷺ ، وكانوا بضعاً وثمانين رجلاً ، وقد قبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ، واستغفر لهم ، وكان في موقفه محنةٌ ، ونعمةٌ.

ونعود إلى حديث كعبٍ. قال: ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا ـ أيُّها الثَّلاثة ـ من بين من تخلَّف عنه. قال: فاجتنبنا النَّاس ـ أو قال: تغيَّروا لنا ـ حتى تنكرتْ لي في نفسي الأرضُ ، فما هي بالأرض الَّتي أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلةً. فأما صاحباي ؛ فاستكانا ، وقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأمَّا أنا ؛ فكنتُ أشبَّ القوم ، وأجلدهم ، فكنتُ أخرج ، فأشهد الصَّلاة مع المسلمين ، وأطوف في الأسواق ، ولا يكلِّمني أحدٌ ، وآتي رسول الله ﷺ فأسلِّم عليه ، وهو في مجلسه بعد الصَّلاة ، فأقول في نفسي: هل حرَّك شفتيه بردِّ السَّلام ، أم لا؟ ثمَّ أصلِّي قريباً منه ، وأسارقه النَّظر ، فإذا أقبلت على صلاتي ؛ نظر إليَّ ، وإذا التفتُّ نحوه ؛ أعرض عنِّي.

حتَّى إذا طال ذلك عليَّ من جفوة المسلمين ؛ مشيت حتَّى تسوَّرت جدار حائط أبي قتادة ، وهو ابن عمِّي ، وأحبُّ النَّاس إليَّ ، فسلَّمت عليه ، فوالله! ما ردَّ عليَّ السَّلام.

فقلت له: يا أبا قتادة! أنشدك الله هل تعلمني أُحبُّ الله ، ورسوله ﷺ؟ فسكت ، فعدتُ ، فناشدتُه ، فسكت ، فعدت ، فناشدته ، فقال: الله ، ورسوله أعلم.

ففاضت عيناي ، وتولَّيت حتَّى تسوَّرت الجدار ، فبينا أنا أمشي في سوق المدينة ؛ إذا نبطيٌّ من نبط أهل الشام ممَّن قدم بالطَّعام يبيعه بالمدينة ، يقول: مَنْ يدلُّ على كعب بن مالك؟ فطفق النَّاس يشيرون له إليَّ حتَّى جاءني ، فدفع إليَّ كتاباً من ملك غسَّان ، وكنت كاتباً ، فقرأته ، فإذا فيه:

«أما بعد: فإنه قد بلغنا: أنَّ صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدارِ هوانٍ ، ولا مضيعة ، فالحقْ بنا ؛ نُواسِك».

فقلت: وهذه أيضاً من البلاء! فتيمَّمتُ بها التَّنُّور ، فسجرتُها.

حتَّى إذا مضت أربعون من الخمسين ، واستلبث الوحي ؛ إذا رسولُ رسولِ الله ﷺ يأتيني ، فقال: إنَّ رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك. فقلت: أطلِّقها ، أم ماذا أفعل؟ قال: لا ، بل اعتزلها ، فلا تقربنَّها. وأرسل إلى صاحبيَّ بمثل ذلك. فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك ، فكوني عندهم حتَّى يقضي الله في هذا الأمر.

فجاءت امرأة هلال بن أميَّة رسولَ الله ﷺ ، فقالت له: يا رسول الله! إنَّ هلال بن أميَّة شيخٌ ضائعٌ ليس له خادمٌ ، فهل تكره أن أخْدُمَهُ؟ قال: لا ، ولكن لا يقربنَّك. فقالت: إنَّه والله! ما به من حركة إلى شيءٍ ، ووالله! ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا.

فقال لي بعض أهلي: لو استأذنتَ رسول الله ﷺ في امرأتك ، فقد أذن لامرأة هلال بن أميَّة أن تخدمه؟

فقلت: لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يدريني ماذا يقول رسولُ الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجلٌ شابٌّ؟! فلبثت بذلك عشر ليالٍ، فكمل لنا خمسون ليلةً من حين نهى عن كلامنا.

ثمَّ صلَّيت صلاة الفجر صباح خمسين ليلةً على ظهر بيتٍ من بيوتنا، فبينا أنا جالسٌ على الحال الَّتي ذكر الله تعالى منا، قد ضاقت عليَّ نفسي، وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت، سمعتُ صوت صارخٍ أوفىٰ على سَلْعٍ يقول بأعلىٰ صوته: يا كعبُ بن مالك! أبشر! فخررت ساجداً، وعرفت: أنَّه قد جاء فرجٌ.

فآذن رسول الله ﷺ النَّاس بتوبة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ علينا حين صلَّى صلاة الفجر، فذهب النَّاس يبشِّروننا، فذهب قِبَلَ صاحبيَّ مبشِّرون، وركض رجلٌ إليَّ فَرَساً، وسعىٰ ساعٍ مِنْ أسلم قِبَلي، وأوفىٰ على الجبل، وكان الصَّوتُ أسرعَ من الفرس، فلمَّا جاءني الذي سمعت صوته يبشِّرني؛ نزعتُ له ثوبيَّ فكسوتُهما إيَّاه ببشارته، والله! ما أملك غيرهما يومئذٍ. واستعرت ثوبين، فلبستُهما، وانطلقتُ أتأمَّم رسول الله ﷺ، يتلقَّاني النَّاس فوجاً فوجاً، يهنِّئونني بالتَّوبة، ويقولون: لتهنك توبة الله عليك! حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالسٌ حوله النَّاس، فقام طلحة بن عبيد الله ـ رضي الله عنه ـ يهرول حتَّى صافحني، وهنَّأني..(١) فلمَّا سلَّمت على رسول الله ﷺ قال ـ وهو يَبْرُقُ وجهه من السُّرور ـ: «أبشر بخير يوم مَرَّ عليك مُذْ ولدتك أمُّك». فقلت: أَمِن عندك يا رسول الله! أم من عند الله؟ قال: «لا. بل من عند الله...»(١).

فلمَّا جلست بين يديه؛ قلت: يا رسول الله! إنَّ من توبتي أن أنخلع من مالي صدقةً إلى الله، وإلى رسوله.

فقال رسول الله ﷺ: «أمسك عليك بعض مالك؛ فهو خيرٌ لك».

فقلت: إنِّي أُمسِك سهمي الَّذي بخيبر، وقلت: يا رسول الله! إنَّ الله تعالى إنَّما أنجاني بالصِّدق، وإنَّ من توبتي ألا أحدث إلا صدقاً ما بقيت. فوالله!

---

(١) النقط تشير إلى كلام محذوف لا يضر حذفه.

ما علمت أحداً من المسلمين أبلاه الله تعالى في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن ممَّا أبلاني الله ، والله ما تعمَّدت كذبةً منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا ، وإنِّي لأرجو أن يحفظني الله تعالى فيما بقي. فأنزل الله ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٧ ـ ١١٩].

قال كعبٌ: والله! ما أنعم الله عليَّ من نعمةٍ قطُّ بعد إذ هداني الله للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ألا أكون كذبته ، فأهلك كما هلك الَّذين كذبوا. إنَّ الله تعالى قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شرَّ ما قال لأحدٍ ، فقال: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٥ ـ ٩٦].

قال كعب: كنَّا خُلِّفنا ـ أيُّها الثلاثة ـ عن أمر أولئك الَّذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له ، فبايعهم ، واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتَّى قضى الله تعالى فيه بذلك. قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ وليس الَّذي ذكر ممَّا خُلِّفنا تخلُّفنا عن الغزو ، وإنَّما هو تخليفه إيَّانا ، وإرجاؤه أمرنا عمَّن حلف له ، واعتذر إليه ، فقبل منه.

* وفي هذا الحديث ما يكشف عن موقف الغساسنة عملاء الرُّوم المعادي للإسلام؛ إذ كانوا يتربَّصون بالمسلمين الدَّوائر ، ويتجسَّسون عليهم ، ويحاولون كسب أنصار لهم من صفوف المسلمين ، ولكن الصَّفَّ الإسلاميَّ الَّذي كان كالبنيان المرصوص ردَّ كيد الغساسنة إلى نحورهم ، فلم يستطيعوا أن يصلوا إلى شيءٍ ممَّا أرادوا ، ولم يجدوا استجابةً من كعبٍ على الرَّغم من أنَّه كان في أشدِّ حالات الضِّيق. بل كان جوابه: (وهذه أيضاً من البلاء).

* وفيه ما يدلُّ على التزام المسلمين بأمر رسول الله ﷺ أن يقاطعوا هؤلاء الثَّلاثة؛ حتَّى إنَّ أقرباءهم الأدنين كفُّوا عن مكالمتهم ، وهذا يدلُّ على تماسك المجتمع الإسلاميِّ ، وحرصه على طاعة النَّبيِّ ﷺ ، وتنفيذ أوامره.

وفيه صورةٌ رائعةٌ تجسِّد وفاء زوجة هلال ذاك الشَّيخ الضَّائع ؛ إذ كانت حريصةً على خدمته، فجاءت رسول الله ﷺ تستأذنه ، وكان في حديثها صراحةٌ.

* وفيه: أنَّ الشيخ الهرم لم يُعْفَ من العقوبة لتخلُّفه عن الخروج للجهاد؛ فهلال بن أميَّة الَّذي تصفه زوجته بأنَّه شيخٌ ضائعٌ ، وأنَّه في موضوع النِّساء ما به حركةٌ إلى شيءٍ كان مدعوَّاً إلى الخروج لغزو الرُّوم ، وعندما تخلَّف أمر الرَّسول ﷺ النَّاس ، وزوجته أيضاً بمقاطعته.

* وهذا الحديث ردٌّ على الَّذين يزعمون: أنَّ حروب الإسلام كلَّها دفاعيَّةٌ ، وأنَّه لا هجوم فيها ، ونسوا ـ أو تناسوا ـ هذا الحديث ، وغيره من الأحاديث ، والأحداث الصحيحة الَّتي تدلُّ على فتح المسلمين بالجهاد معظم الدُّنيا المعمورة.

* وفيه ذكر عادةٍ كانت في القوم ، وهي إعطاء البشارة لمن يحمل خبراً سارَّاً ، ويسبق في ذلك ، فقد أعطىٰ كعبٌ البشير ثوبين لم يكن يملك غيرهما يومئذٍ ، وهذا يقرِّر: أنَّهم لم يكونوا يستكثرون من الملابس ؛ لأنَّ كعباً ـ كما يدلُّ الحديث نفسه ـ كان موسراً.

* وفيه ما يدلُّ على مشروعيَّة سجود الشُّكر ، وهجران العصاة.

* وفيه ما يدلُّ على عادةٍ اجتماعيَّةٍ ، وهي استعارة الملابس.

* وفيه برهان على أنَّ الصِّدق منجاةٌ ، وأنَّ التَّوبة النَّصوح مقبولةٌ عند الله.

* وفيه شرحٌ لمعنىٰ كلمة (المخلَّفين) الواردة في سورة التَّوبة.

* وبعد فهذه القصَّة دليلٌ على إيمان كعبٍ ؛ الَّذي دفعه إلى الصِّدق ، واحتمال ما جرَّ عليه هذا الصِّدق.

وقد عرض كعبٌ كلَّ ما ذكرنا بأسلوبٍ مؤثِّرٍ بليغٍ.

* * *